خرائب بيسان

ما زالت بيسان محط انظار علماء العاديات والآثار منذ جعلوا همهم تاريخ فلسطين ووصفها . وبيسان هذه قرية صغيرة من قرى فلسطين سميت في التوراة بيت شان وسماها اليونانيون القدماء سكيثوبوليس (Scythopolie) . اي مدينة السكيثيين . وقد اشارت التوراة اليها اشارة مثيلة وكذلك كتب التاريخ التي جاءت بعدها فانها لا تصفها وصفاً مطولاً ينقع غلة الباحث ولا تقول عنها سوى انها كانت مشهورة بثروتها ومنعتها . ثم ان موقعها الحربي المنيع عند الطرف الشرقي من مرج ابن عامر وعدم معرفتنا اصل اسمها اليوناني — هذا كله زادنا جهلاً بها وبالتل القائمة عليه

ولم يمكن احداً مدة العهد العثماني ان يبذل جهداً للبحث في آثارها لانها كانت جزءاً من املاك السلطان (جفتلك) وهي واقعة في بقعة خصيبة منخفضة كثيراً عن سطح البحر وكانت مشهورة بشدة حرها وكثرة الملاريا فيها ولكن جفف كثير من المستنقعات المحيطة بها في العهد الحالي واصبح التنقيب عن آثارها مأموناً فيها ولو انها لا تزال معرضة لغزو قبائل البدو عليها من شرق الاردن

وقد اخذ متحف جامعة فلادلفيا امتيازاً بالتنقيب عن الآثار فيها وبدا عمله في اواخر يونيو الماضي . وهذا المتحف هو الذي انتدب بعثة للتنقيب عن العاديات المصرية ووالى عمله في مصر بضع سنوات

ولا يرى من محطة سكة الحديدة سوى راس التل مشرفاً على طرف صعيد لا تزال فيه آثار معركة من المعارك الاخيرة التي دارت بين الجيش الانكليزي والتركي

وتدل بقايا الاعمدة والابنية المبعثرة هنا وهناك على انها من قصور يونانية او رومانية . ويمكن تتبع سور المدينة القديم شمالاً وغرباً حتى يتوارى خلف القرية الحديثة

واذا بلغ المرء طرف الصعيد واشرف على الجوف العميق الذي يجري النهر فيه استعرض امامه التل من حضيضه الى قنته وادرك اذ ذاك عظمته وسبب منعته . فان اسناده قائمة لا يصعد الا على السند الغربي منها . وهناك يرى طريق

ضيق قديم يؤدي الى خرائب بوابة عند الزاوية الشمالية الغربية . وفي داخلها بسيط(١) من الارض ممتد الى ما حول جانب التل الشرقي وآخر في الجهة الغربية وهو اكثر انحداراً ويبلغ قنة التل

ولم يكن الحصن الاصلي والمدينة الصغيرة حولهُ يشغلان غير راس هذه القمة الصخرية ومنحدراتها العليا . وفي الازمنة السالفة الاولى امتدت المدينة غرباً فقط مستذرية بظلّ الحصن . ثم صارت في العهد اليوناني بعدها من اعظم مدن الشرق وسميت سكيثوبوليس كما تقدم . وآثار الهياكل والمسارح والابنية العمومية التي انشئت في ذلك العهد تشغل مساحة واسعة . فالنقب فيها يقتضي زمناً طويلاً

ولكن اهمّ ما في هذه البقعة اقدمها اذ يرجى العثور فيهِ على معلومات تفيد في فهم تاريخ الساميين وحضارتهم . وقد حفرت حفائر صغيرة على سبيل التجربة لاستطلاع حدود البسيط ثم حفر خندق حتى بلغ الجانب الشرقي من البسيط الاعلى وهذا كلهُ للاطلاع على تكوين طبقات الارض من القنة الى الصخر . فلما بلغ الفعلة في الحفر عمق ١٢ متراً خيف ان تنهار الجدران الى الداخل فبطل الحفر. ولكنّ دلّ ما كشف من طبقات التراب الى هذا الحدّ على آثار العرب القدماء في الراس ثم آثار العهد البيزنطي واليوناني تحتهُ من الفخار . ووجدت آثار جدران من اللبن فيها فخار من العهد السامي .وفي اسفل الكل وجدت آثار بناء مستدير تاريخهُ سنة ٢٠٠٠ ق . م تقريباً . وليس فيما تحت هذا كلهِ من الانقاض اثر من الصخر الطبيعي مما يدلُّ على ان التل اقدم مما كنا نقدرهُ . وقد وجد هنا بضع جرار من الفخار دهنت بدهان غليظ من بروكسيد الحديد ورسم على احداها رسم حيوان طويل القرنين يشبه الوعل . ووجد في مكان اعلى من هذا بقليل هيكلا عظام الواحد هيكل فتاة مضطجعة على جنبها في حفرة حولها صفّ من الحجارة ومعها بعض الآنية الفخارية . وطرز هذه الآنية معروف وتاريخهُ ١٨٠٠ — ١٦٠٠ ق . م اي العهد المعاصر لطرد الملوك الرعاة (الهكسوس) من مصر . ووجد في عنق الجثة بعض الخرز منها اثنتان مصنوعتان من الكورتز وقد وجد مثلها في السودان في مدافن يمتد تاريخها الى عهد الرعاة

(١) نريد بالبسيط ارضاً منبسطة رمي في جوانب التلال بسائط متدرجة بعضها فوق بعض

وكان سطح البسيط الاسفل مغطى بحجار مكسرة وتلتا منهُ رؤوس اعمدة من الغرانيت . وفي الطرف الغربي بقية بناء تكوّن جانباً من البوّابة . وعند نهاية الحفر كنا قد ازلنا ثلاث طبقات من هذا البسيط

اما سلسلة الاسوار العليا التي وجدت فهي من المدينة التي بناها العرب بعد غزوتهم الاولى سنة ٦٣٢ مسيحية .وقد بنيت على اسس الابنية البيزنطية السابقة وابنية المسيحيين الاولين وكانت حجارتها على الغالب من حجارة هذه الابنية . وكان الغرض الاكبر من استعمال اعمدة الغرانيت الاسود تقوية الاسوار الجديدة ووجدت غالباً مقلوبة او مكسورة نصفين تسهيلاً لتداولها . والجزء الضخم من السور المحاذي للطرف الشمالي هو البسيط الاسفل او الجدار الداخلي المتصل بالبوابة . وفي داخله وجدنا لوحاً كبيراً من الرخام في غرفة كانت مطبخاً على ما يلوح لنا.وعلى اللوح كتابة منقوشة تذكاراً لترميم سور المدينة باسم الامبراطور فلافيوس ارسينيوس في ولاية فلافيوس ليون

ومنذ بضع سنوات وجد لوح مثل هذا في بيسان وهو الآن في منزل حاكم القضاء هناك . وعليهِ كتابة عن ترميم السور ايضاً وفيها ذكر اسم الامبراطور فلافيوس انستاسيوس. وهذا يرجح ان تاريخ اللوح سنة ٥٠٩—٥١٠ مسيحية. وقد عرف في التاريخ ان رجلاً اسمهُ ارسينيوس كان ذا حظوة ومكانة عالية في بلاط القسطنطينية نحو سنة ٥٣٠ مسيحية ويقال انهُ استخدم نفوذهُ لخير مدينة سكيثوبوليس ولعل ذلك لانها موطنهُ . والتاريخ في الكتابتين مختلف سنة واحدة . ويعلل هذا الاختلاف بان ترميم السور اقتضى بضع سنوات والمرجح انهم كانوا ينصبون لوحاً كلما تمّ ترميم جانب منهُ . وقد وجدنا في الانقاض بعض مصابيح من البرونز وقطع من القيشاني الدقيقة وهي لا شك من بقايا الكنيسة المسيحية

ويستدل من رسوم الابنية البيزنطية الاصلية انها كانت تكنات او مخازن للمؤونة .وقد وجد كثير من الخشب المحروق وقطع من القيشاني المدخنة المكسرة التي كانت ارض الغرف ترصف بها فدل ذلك على ان الابنية حربت حرقاً بالنار . وكان ماء المطر يصرف من سطوحها بميازيب مستديرة من الاجر (الطوب المشوي) تمدُّ داخل زوايا الابنية وتحت الغرف الى صهاريج ويوصل بعضها ببعض بالسمت.

وكانت مياه المطابخ والمراحيض تنقل ببرابخ من الآجر او الحجر مبطنة بالجص ومغطاة بقطع من الآجر تنفذ الى الجدران الخارجية

وتحت هذا المستوى بقايا ابنية محفوظة اتم الحفظ تنتمي الى عهد ثالث لم نعرفهُ حتى الآن . والحجارة مرصوفة فيهِ على الطراز المعروف بانهُ رومانيّ

اما الابنية الكبرى في البسيط الاسفل فلا تمتدُّ الى البوابة . وبينهما على مسافة طويلة بيوت سخيفة البناء وغرفة معقودة يرجح انها صهريج . والبوابة كما ترى الآن ليست اقدم من العهد البيزنطي وقد تكون بنيت في عهد العرب . ومهما يكن من ذلك فقد بنيت مكان بوابة اقدم منها واضحة الاساس والارخارج المدخل . وقد استعمل في جدران البوابة الداخلية قطع من الحجارة مختلفة الحجوم ورؤوس الاعمدة وغيرها . ولا ريب ان البوابة نفسها كانت مؤلفة من مصراعين ضخمين من الخشب يدوران على قاعدة حجرية ويقفلان بعارضة كبيرة. فاذا اريد فتح المصراعين أدخلت العارضة في فتحة عميقة في السور ولا تزال كما هي حتى الآن . اما الزقاق الذي كان داخل البوابة فيمتدُّ الى مسافة ٣٠ متراً شرقاً في منحدر قليل ثم ينحني فجأة الى الجنوب . ولم نتتبعهُ بعد ذلك والواضح انهُ يؤدي الى قمة الاكمة

وقد وجد بين خرائب المدينة العربية قطعة عمود من الرخام الاخضر والابيض وعليها كتابة بالعربية منها ما لا يقرأ البتة ومنها ما يقرأ شيئاً. ومما قرأناهُ منها انهُ كتبها « محمد بن سعيد بن الخطاب الصحابي في شهر ربيع الثاني سنة ١٧٠ للهجرة ». ووجد بجانبها غرفة صغيرة اتخذت جامعاً وفيها محراب من اللبن المبيّض . واقران وتقوش كثيرة مزخرفة وصهريج واعمدة مكسرة ومقاعد من الحجر وحوض للوضوء

كذلك وجدنا خرائب كنائس من طرز الكنائس التي يرجع تاريخها الى القرن السابع للمسيح ومنها كنيسة اكتشفت في بصرى بحوران

ووجدنا ونحن ننقب في خرائب القنة على عمق مترين ونصف كتابة مصرية من عهد سيتي الاول سنة ١٣١٣ — ١٢٩٢ ق . م على لوح من الغرانيت الاسود ولم يكن اللوح على وضعهِ الاصلي بل وجدناهُ على احد اطرافهِ وقد كسر جزء منهُ . وعليهِ ٢٠ سطراً بالهيروغليفية وقد ذكر اسم السوريين فيها . وما قرأناهُ منها الى الآن لا يحتوي على شيء سوى اطراء الملك المعتاد كرلس فشر